لعنة ميت رهينة..

الجمع بين الأضداد

كثيرة هى المدن أو القرى التى حولها السرد إلى مدن أسطورية خالدة، فقرية ماكوندو لماركيز هيّ الصخب والعنف والحب، وهى قرية متخيلة خلقها ماركيز، و"مدن الملح" لعبد الرحمن منيف هي مدن الأسطورة والمنافي والألم، والصحراء عند إبراهيم الكوني صارت مدنًا وقرى أسطورية لها مثيولوجيتها وطقوسها وغرائبها، فخلدت الصحراء، وتتآخى قرية ميت رهينة فى رواية "لعنة ميت رهينة" مع تلك القرى الأسطورية؛ إذ استيقظت من سباتها الطويل، لتكون شاهدًا على العصر.

أن تخلص لكتابة الرواية بعد تجارب ناجحة فى عالم الشعر، فهذه مغامرة تحسب للمبدعة سهير المصادفة، التى تفاجيء جمهورها بروايات تحتشد بفضاءات غريبة مبهرة، غير أنها لا تستسلم لهذه الغواية؛ التي وقع فيها بعض أدبائنا، أى محاولة استثمار هذا المدّ العاتي، الآتي من أدب أمريكا اللاتينية مع ماركيز وأيوسا وإيزابيل الليندى وغيرهم.. إنها تخلق أسطورتها الخاصة، وتجيد تقديم روافد تخصّب تربة الإبداع، شأن كل مبدع صادق.

كعادتها، منذ أن كتبت روايتها الأولى" لهو الأبالسة" تقدم سهير المصادفة بناءً سرديًا محكمًا، يتسم بالتعقيد الخالى من الغموض،

يختفى تحت ما يبدو للمتلقى للوهلة الأولى بسيطًا فى تشابكه وتعقيده، لكنه أجاد نسج خيوطه، بما صنع فنًا راقيًا.

أمام الحس بالوعى التاريخى، والواقع الآنى، والتيارات المعبرة عن المتغيرات والتحولات العاصفة بالمنطقة، تكتب المصادفة نصها، لا تترك المتلقى فى حالة من النشوة والاسترخاء لفك الشفرات النصية، أو العثور على الدلالات الفنية، بل تلقى عليه بمسئولية أكبر من ذلك، ألا وهى الإجابة عن أسئلة، منها: لماذا كتبت الرواية هكذا؟ لماذا تنتمى إلى الروايات ذات البناء السردى، الذى يشبه العمارة القوطية فى فخامتها، ومتانة بنائها، ومساربها، وسراديبها، وزخارفها، الآخذة بتلابيب العقول والأذواق، فى الوقت الذى تنحو الكتابة – بشكل عام – صوب المزيد من البساطة؟ ولماذا ترهق ذائقة المتلقى الذى اعتاد أن تكون كتابة المرأة عن ذاتها هى البدء والمنتهى، فلا تثير هذه القضايا المعقدة؟

الرواية مكتنزة بالتأملات المعرفية، والفلسفية، والتحليلات الايديولوجية السياسية، والاجتماعية، الكاشفة عن تأثير الماضى/ التاريخى فى الحاضر المعاصر.

تصدمنا الرواية حينما تتخير تلك الحقبة المزدهرة من تاريخ مصر، ففترات الانسحاب والانحسار الحضارى هى الفترات؛ التى يتم استلهامها فى كتابة الرواية التاريخية، ولأن "لعنة ميت رهينة " ليست رواية استلهام تاريخى، فإنها تثب على هذه الخاصية، فتكون ميت

رهينة أول عاصمة للدولة المصرية الفتية بعد وحدة القطرين الشمالى والجنوبى.

تعيد المصادفة ميت رهينة للواجهة. هل لأنها كانت أول عاصمة فى تاريخ مصر، فنفضت عنها غبار السنين والنسيان والضياع عبر توالي والحقب والأحداث؟

"الداخل إلى ميت رهينة سائرًا على قدميه سيجد تقاطع طرق، فيهز رأسه حائرًا، ستنظر النسوة إلى الدخيل شزرًا، ويغمضن أعينهن اليمنى، ويفتحن اليسرى على اتساعها، فى محاولة لتحديد هدفه من زيارة هذه القرية المهمة، والمغلقة على سكانها، والغارقة فى دوامات نفايات تطير فى أجوائها، وهواء فضى ثقيل".

هذا المفتتح يشير إلى عالم القرية المتوجس، والمغلق على نفسه، عالم يحوط به كل ما هو غريب ومثير، تزداد صدمة المتلقى كلما اقترب من البشر والحجر والأشياء، " نسوة يحملن على رءوسهن أكياس القمامة، أو دلاء المياه المتسخة ليلقينها فى ساحة معبد "بتاح"، هكذا يلتقي المجد مع الاضمحلال والجهل، عظمة العمارة مع انهيار البنايات واهترائها.

هل كان هذا المشهد أول إرهاص للعنة "ميت رهينة"؟

عالم "ميت رهينة" مليء بشحنات دلالية رمزية، على الرغم من مراوغة السارد المستمرة فى تقديم عالم واقعي يحمل مشكلات الواقع، فى كل قرانا المصرية المنسية، والقابعة تحت وطأة التخلف الشديد

والفقر والقذارة وغياب الوعى، لكن هذا العالم القاسى تلفه غلالة ساحرة من الغموض والخرافة والأسطورة والغرائبية.

هى قرية الأسرار، فكل شيء ضبابى غائم " تشى طبقات الضباب التى تبتلع سماء ميت رهينة صباحًا، بأنها قرية غارقة فى الأسرار، وتشى شمسها الساطعة التى تزيح طبقات الضباب بعيدًا بمجرد طلوعها المفاجئ، بأنها قرية تعيش دون أسرار.. ميت رهينة قرية تشبه المدينة، ومدينة تشبه القرية، ميت رهينة لا تشبه إلا نفسها " نعم هى لا تشبه إلا نفسها، فقد خلقتها سهير المصادفة خلقًا آخر، صارت قرية أسطورية، مثل قرية ماكوندو لجارثيا ماكيز.

لا يمكن تصور أن الكاتبة يحركها نوستولوجيا للماضى، بل هى تحمل همومًا تاريخية واجتماعية وثقافية، تضع الماضى مقابلًا للحاضر، تتأمل فى التاريخ والبشر والحجر والحياة المعاشة عن أسباب هذا الانهيار الذى أصاب روح المنطقة، الرواية رواية وطن، ينطلق السرد من نقطة انحدار، ثم يصعد إلى طبقات علوية، ثم يهبط إلى أحداث تاريخية، وفى كل الحالات تطالعنا دلالات رمزية.

هل يمكن أن نغفل الهجرات القادمة من شرق مصر القديمة، فتغير من ديمغرافية المكان؟ هل يمكن إغفال دلالة اسم "هاجر" وما يستدعيه من إحالات دينية وتاريخية؟

هذا النص الذى يتشكل مع كل قراءة، يعتمد على تفاعل الأنواع، بل على كسر الحواجز بين الفنون، بين ما هو سردى محكى، وما هو تشكيلى جمالى، عبر تكوينات مشهدية بصرية، يلعب فيها

الضوء والصوت والظل والمنظور، إضافة إلى الإفادة من الشعر، الصورة الجمالية هى إحدى أهم السمات، والإيقاع الموسيقى الذى يحكم إيقاع السرد وحركات الشخوص، والإفادة من الفنون الأخرى... إلخ.

"يمر الغريب فى طرقاتها، وهو يهز رأسه حائرًا، من أين يبدأ خطواته على أرضها لكى يفهمها، فيستطيع اتخاذ قرار بمحبتها أو كراهيتها"

"ميت رهينة قرية تتوسط أطلالاً أثرية عمرها أكثر من خمسة آلاف عام، يحدها النيل من الشرق، ويسير أهلها إلى جوار بهائمهم، وهم هائمون فى حزن عميق تغلفه ضحكات عالية".

"صفقت القاعة طويلًا، حين أسكت بإيماءة من رأسه أصوات الآلات وتدفق الجمل الموسيقية، ليطلق الكمان صوتًا يشبه صوت امرأة متألمة كأنها تلهث وهى تجرى فى مكانها فى حجرة مغلقة، أو كأنها تصرخ تحت الماء، أو كأنها تقاوم نيرانًا ما تحاصرها، أو كأنها تغتصب فى حقل ناء"

لم تهتم شخوص الرواية بالانفتاح على السياسيّ إلّا يى حدود الإفادة منه فى البحث والتنقيب وسرقة الآثار، وبيعها للأجانب الوافدين إلى بورسعيد" مدينة الانفتاح"، ظلوا أسرى حلمهم فى البحث عن ميراث الأجداد، هم أحق من الغريب فيه " أدهم الشواف " حصل على الجمال والشباب، لكنه لن يحصل على الأرض فهى باقية، رغم

إقامته في القصر وبركة هاجر، ظل الجميع ينتهك خصوصيته لامتلاك الأرض بالبحث والتنقيب والسرقة.

إنّ عالم"ميت رهينة" الثرى بالحكايات والفضائح والطقوس والتشابكات والاختفاءات، يجعل من القرية عالمًا مستقلًا، لأنه لم يعد متصلًا بالعالم من حوله، ومتأثرًا به، بل هو مؤثر فيه، بداية من السارد الذى لم يكن فى بعض المواقف محايدًا؛ مرورًا بكل الشخصيات (أدهم الشواف، عبد الجبار، ليلى، الموسيقي د. نور، المقدس فانوس جرجس، الشيخ برهامى الدجال ومساعدته، الحرامى، رجل الدين خالد الطوبجى، المجذوب، مهاويس الليل، نور، صلاح، حتى المساخيط المحبوسة من آلاف السنين تلعب دورًا فى تحديد مصائر البشر، الكل يخرج إلى العالم ليعود إلى ميت رهينة، فهى الملاذ والنعيم والجحيم، لا يمكن العيش فى مكان آخر غيرها، ولكى لا تفقد القرية بريقها وسط هبات الانفتاح، تتحول بقعة منها إلى قرية سياحية يؤمها السياح، فيعاد تخليق التاريخ، لكنه تاريخ مزيف، سرعان ما ينطفئ، وكأن القرية تعيش بين الحياة والموت، أو اليقظة والكابوس.

التأمل مرحلة تسبق مرحلة الكتابة، إلا أن سهير المصادفة تجعلها مرحلة ملازمة للكتابة، فهى لا تفتتن بنصها، بل تتأمله، تمعن النظر فيه، تحلله، تربطه بأحداث قد تبدو ظاهرة، لا رابط بينها، وتترك للمتلقى متسعًا من الحرية للمشاركة في إنتاج نصه الموازى، لكنها تضع له لحمة ممثلة فى خيوط من الحرير تربطه بهذا المستوى

الميثولوجى لتجعله ابن البيئة الشعبية؛ بما تتضمنه من عادات وطقوس ومعتقد وسحر أسود وأمثال وحكم وأقوال وصور، بل ونمط تفكير، كل ذلك يتحرك على خلفية من التحولات السياسية العميقة؛ التي تنال من سلوكيات تغير من أنماط الحياة، ومن ثمَّ تشكل علاقات وأنماط جديدة من المعاملات، فى ضفيرة مع المتخيل، سواء أكان فانتازيًا أم أسطوريًا أم غرائبيًا؟

وكما تركت الكاتبة للمتلقى حرية استنباط الدلالة، تركت الحرية لشخوصها، فهى تعبر عن نفسها، تختلف مع السرد، أو تستكمل ما تم السكوت عنه، وتسرى روح من السخرية اللاذعة لتخفف من وطأة الأحداث وقسوتها.

يتحول السرد إلى وصف درامى، يكشف عن مسرحة الأحداث، واستحضار الشخوص، والتقاط لحظة الفعل، واستنطاق الذاكرة، وشحذ التخيلى بكل أنواعه، والتلاعب بمصائر الشخوص، وكسر توقعاتهم، وفقد أحلامهم، وتثبيط هممهم، فى المقابل من بزوغ شخوص قادرة على تجاوز الواقع المحبط، والتلاحم مع التاريخى ومحاورته والإفادة منه، وتحدى السياسي بكل تقلباته المرهقة للروح، " فرغم أن أعينهم مصوبة إلى الأرض، إلا أن أنوفهم الكبيرة متجهة إلى السماء، مما يجعل هيئتهم تشى بالحزن واللامبالاة والكبر والانكسار فى الوقت نفسه، يهيأ للعابر أنهم مغلفون بغلالة شفافة، لا يستطيع أحد معرفة مكوناتها"

تمثل رواية "لعنة ميت رهينة" خبيئة لا تكشف عن نفسها بسهولة ويسر، فلا بد من الحفر والتنقيب، وهو ما شغل ناس "ميت رهينة"، الفعل الأسطورى ارتبط بالثراء والتحقّق، الكلّ مسّه جنون البحث، ليس فقط أبناء ميت رهينة، بل هناك من أتى من خارج الحدود، كلّ يسعى للوصول إلى الخبيئة، فيلعب السرد لعبته، وتتحول الحركة داخل السرد إلى حركة التفافية، تشبه المتاهة، من يدخلها لن يخرج منها سالمًا، أو لا يخرج أبدًا. ميت رهينة تعرف كيف تدثر خبيئتها بالحكايات، وتشابه الأيام، لا شيء يقطع رتابة الصباح والمساء، والحكايات التى يتركونها لتدور فى أفواه الناس فترة طويلة، ثم تختفى، إذا ما ظهرت بدلًا منها حكايات جديدة "هكذا الحياة تجرى، وإن كانت توصف بالرتابة، إلا أننا دائمًا ما نجد الجديد، فالمياه تجرى فى نهر الحياة، ولا تتوقف، إلا حينما يريد السارد أن يبئّر إلى حكاية، وشخوص يتصدرون المشهد، وهو فى ذلك يحتشد للحكاية، يوفر لها كل سبل التشويق والفانتازيا والمأساوية، إضافة إلى تضفيرها فى لحمة النسيج السردى، فتزيد من المتراكمات السردية، مانحة النص هذا الزخم التوالدى على طول الرواية، وتصير هذه الحكايات فصولًا داخل الفصول، وتنبئ بأن مصائر الشخوص فى "ميت رهينة" واحدة.

الرواية حبلى بقصص لا يمكن نسيانها، عالم نسجته الكاتبة من المخيلة، وربطته بتجارب وحوادث حقيقية، أو مبتعثة من التراث، أو أنها أحداث معاصرة ما زالت ماثلة فى الذاكرة الجمعية، لعل من أجمل هذه الحكايات حكاية "الخالة تبارك"، و"حكاية ابن ستيتة".

يمثل كل من أدهم الشواف وعبد الجبار طرفى الصراع على حب هـاجر، والظفـر بقلبهـا. وإذا كـان أدهـم الشـواف قـد فـاز بأموالـه ومجوهراته بجسد هاجر، فإن عبد الجبار – رغم مغامراته وزواجه – ظل يحبها، ويرى فى ليلى الابنة صورة لها. لكن هذا الحلم ينكسر على أرض الواقع، مع حرصه على البحث عن كنوز المقبرة، وسعيه الدائم للثراء الفاحش، فإذا كان المرض الغامض قد أنهى حياة أدهم الشـواف بعـدما انكسـر أمـام إهمـال الوسـط الثقـافى وعـدم الاعتـراف بشاعريته، فى مشهد مؤثر يقدم مدى ما وصلت إليه الحياة – حتى فى جانبها الثقافى من القسوة والتوحش – فإن عبد الجبار يضيع فى عالم الممنوعات من الإتجار بالمخدرات، واللهث وراء المال.

حينمـا نتحـدث عـن عـالم هـاجر قبـل ظهـور أدهـم الشـواف فـى حياتها، نجد عالم الطفولة، حيث استحضار كل ما يمت للحنين إلى عـالم الطفولـة البـرئ، الحنـين إلـى الماضـى، إلـى الأم والأب، إلـى الغيطان والمرجيحة والأطفال، صحيح أنه عالم فقير، لكنه عالم يشع بالجمال والبهجة، مترع بالمحبة؛ إذ علاقات البشر تسير فى بساطة ويسـر، بينمـا عالمهـا فـى "قصـر الشـواف" يفتقـد الـدفـء، هـو عـالم متحفٍ يفتقد الروح، عالم ميت لا حياة فيه، رغم ما يبدو على السطح من رومانسية، إلا أننـا نشـعر بـأن أهل القريـة يشـعرون بالغربـة، فهم أمـام عـالم غريـب زرع بيـنهم، وقـد انتزعـت هـاجر مـنهم؛ لتـزين هـذا القصر الغامض.

تمثّل هاجر، بكل ما يمثله الاسم من محمولات ثقافية وتاريخية وفنية ومصيرية، إحدى الدلالات الثرية؛ التي تجعل المتلقى ينقلها من الواقع الروائى إلى العالم الدلالى، وبخاصة عندما تختار لها الكاتبة تلك النهاية ذات المصير الغامض، فهى التى تلف القرى والبلاد، الكل يتناقل أخبارها، يؤكدون أنها شوهدت وهى تجلس إلى جوار مرجيحة، ربما كانت تشب على قاربيها الخشبيين، أخذت من صاحبها عودين من القصب، ومصتهما، وخلعت جلبابها الأسود، وظلت بجلباب صيفى قطنى خفيف، أزاحت من تجلس أمام فرن طينى، وأخذت من يدها السيخ والمطرحة ومسحت دموعها قائلة لها: " عنك يا أختى"، وقرفصت أمام الفرن ساعتين كاملتين، وهى تخبز العيش الشمسى وأقراص الرحمة، وابتسامتها الطيبة لا تفارق وجهها الذى زاده وهج الفرن احمرارًا"

صارت "هاجر" شخصية أسطورية، هل كانت حفيدة إيزيس، الباحثة عن الشخصية الحقيقية لمصر، فهى تجوب البلاد، تنشر الخير والبهجة والسعادة بين الناس، أجمع من شاهدها على أنها لم تعد تذكر إلا اسمها، ويتعجبن من ذلك، فالنساء فى سنها لا يتذكرن أسماءهن، بل يعرّفن بأبنائهن، ها هى تعود إلى وعيها وذاتها وهويتها الحقيقية، بعد أن غيبت طويلًا.

نالت شخصية نور اهتمامًا كبيرًا، من السرد والتحليل النفسى، والتتبع لمسيرة هذه الشخصية، التى تبدو تجسيدًا للعنة، هى " لعنة ميت رهينة " التى صبت على أهلها، هى المعادل لفكرة لعنة الفراعنة،

التى عرفها كل من عمل بالكشف عن الآثار، نور هذا المسخ المشوه ابنة معطيات المدنية الحديثة، هى ابنة غير شرعية، ونتاج زواج ليلى ابنة الشواف وهذا الموسيقى الأمريكى، هى الفتاة المهمومة بالكنوز الموجودة فى المقبرة ، تنتقم من كل ناهب أو طامع فيها، بينما تسعى لحل لغز مخطوط جدها أدهم الشوَاف " أوراق جدها لم تكن كتابًا واحدًا، تعمل على هذا المخطوط الملغز.. ببساطة ترك أدهم ثلاثة كتب فى مخطوط واحد" ديوان شعرى ضخم من ألف صفحة، وسيرة حياتها، ورسائل إلى زوجته ريتاج، وبناته، ورسائله إلى ابنته الرضيعة ليلى أثناء مرضه، وكتابه الفكرى " جذور الفتنة".

ترى أى فتنة يقصد؟!

نور التى عرفت التعامل مع الكمبيوتر، وقادت السيارة دون أن تتعلم القيادة، وعرفت النظريات الفلسفية والمنطق، وقرأت الشعر العربى كله، وامتلكت الحدس والفطنة، وامتلكت قدرات خارقة فى التعرف إلى ما يدور فى عقول البشر، ونياتهم، وأحبت جدتها، وارتبطت بعلاقة شفافة بصلاح.

نور التى أعلنت أنها سفاحة "ميت رهينة"، فهى تتخلص من كل من يحاول الوصول إلى الكنز، إلى الخبيئة، بالقتل، تكره أمها لأنها لم تعترف بها ابنة، تركتها باحثة عن الحب، كأحد مشروعاتها الفاشلة.

ثمة احتدام صراعات داخل ميت رهينة. ظني أن الصراع الرئيس فيها، هو صراع من يمتلك الحقيقة والأسطورة قديمًا، وهذا الوافد

بميراثه وتراثه العجيب، الذى يضم سيرة ذاتية لم تكتمل، وأشعار لم ترْق لأن تكون شعرًا، فهى أقرب للنظم من الشعر، تفتقد الأخيلة والصور، وهو – كما تقول حفيدته – مزيج من النظم والنثر، هو الآخر تصيبه اللعنة، فقد أراد أن يحتفظ بالكنز والمقبرة لنفسه، فبنى عليها بركة ماء سماها "بركة هاجر".

هكذا لا تخفى الدلالة.

ظهور نور على مسرح الأحداث يقترن باختفاء شخصيات؛ لتتيح ظهور شخصيات أخرى وأحداث أكثر انفتاحًا على العالم الخارجى، فهى تخلق الروايات" بالتأكيد أنت الآن تخمن أن كل من أحكى لك سيرتهم هم قائمة ضحاياي، هم الذين قتلتهم بدم بارد الواحد تلو الآخر، أو سأقتلهم مستقبلًا، وها أنت تستشعر يا دكتور أننى منصفة وأنا آتيك بأخبارهم، فلست فى حاجة إلى تزوير سيرتهم، لإثبات أنهم شياطين أو أشرار، ومن ثم أجبرونى على قتلهم، لا يا دكتور، لقد تطور الشر كثيرًا حتى تكاد تراه فى أجساد ملائكة"

هى تقتل كل من يخرب فى الميراث الإنسانى الذى تركه لنا الأجداد، وتنتقم لكل من يكره التنوير والثقافة باسم الحفاظ على المقدس.

نور بكل ما تملكه من قوى خارقة، لا تحمل روحًا شفافة، هى مسخ مشوه، تكشف عن المستقبل، لكنها – برغم ذلك – لم تكن عنصرًا إيجابيًا، كما هو حال صلاح ابن القرية الذى تسلح بالعلم والثقافة، بينما فقدت نور هذه البويصلة، فتخبطت بين العبقرية

والحدس والسحر، وفقدت روح المحبة، تملكتها روح شريرة تدمر كل من حولها بداية من أبيها وأمها، وأهل القرية إلخ، هى نتاج تشوه المدنية ونزقها وتطرفها.

إن المرء يشقى بوعيه، وبخاصة إذا كان يحيا وسط الجهلاء والمدعين والأفاقين، لكن المصادفة تدين فى الوقت ذاته تلك الحدة والعنف فى معالجة المشكلات، فالقتل تصرف همجى، لذا نجد صلاح فى حواراته معها يدين تصرفاتها المجنونة، فالمسألة ليست تخلصًا من أشخاص بعينهم، بل من فكر غزا المنطقة، وتغلغل فى نفوس أبنائها.

تتنوع أساليب الرواية بين الرومانسية، حيث تتفجر قصص حب ملتهبة المشاعر، تثير الغيرة والحنق تارة، والعشق والهيام تارة أخرى، وواقع خشن يعبر عما آلت إليه أول عاصمة مصرية عرفها العالم، وصولًا للشق البوليسى، مرورًا بالفانتازى والغرائبى، والغريب أن الغرائبى والبوليسى يتبادلان الأدوار مع ظهور شخصية نور، وتصبح القرية ساحة للقتل والحرق وجرائم الاختفاء... إلخ.

ربطت الكاتبة بين التاريخى والمعاصر، فالحياة مشحونة بالتوتر وظهور الجماعات الدينية المتشددة، تبدو القرية وكأنها صارت الوطن الذى يتهدده هذا الخطر، فسهير المصادفة تقدم مشاهد قاسية كانت تعالج – فيما سبق– تلميحًا، بينما نجدها فى الرواية ركنًا لا يمكن إغفاله، فقد آن الأوان كي تعالج الأمور بطريقة شفافة وواضحة، وعلينا الحفاظ على الوطن وسلامته، هنا يظهر دور

التفكير الظلامى الذى يتخفى وراء المقدس، ويمثله الشيخ خالد الطوبجى، ودعوته لحرق مبنى المجمع الثقافى والمكتبة، وكل ما فيها من كتب، إننا أمام مشهد منتزع من القرون الوسطى، وكأن التاريخ يعيد نفسه، لكن الحقيقة أن التاريخ لا يعيد نفسه!.

فى رشاقة تحسد عليها الكاتبة، تعبر الرواية أزمنة موغلة فى التاريخ منذ أن اختارت الكاتبة ميت رهينة أول عاصمة مصرية بعد توحيد القطرين، تمر الرواية بعصور متعددة يلعب الأسطورى والفانتازى دورًا فى تجذيرها داخل النص السردى، بينما يلح الآني فى الأفق، مقتربًا رويدًا رويدًا فيحدث تأثيراته، وتغزو الأحداث الخارجية القرية النائمة على تاريخها فى محاولة لإيقاظها من هذا السبات، فتقع الكارثة، إلى أن نصل لأحداث ثورة يناير واستشراف نور، والتنبؤ بما سيحدث.

كما قالت سهير المصادفة، فالمكان هو البطل فى رواية " لعنة ميت رهينة، الشخوص يتحركون فيه حاملين تاريخه الذهبى، متسائلين هل هم حقًا أحفاد الفراعنة الذين دانت لهم الأرض والأملاك؟. أحيانًا يبحثون عن ذهب أجدادهم ليسرقوه، وأحيانًا للمباهاة به، وفى أغلب الأحيان هم يقفون حائرين بين ماض حقق خلوده، وحاضر مضن ومرتبك، ولا يستطيعون بعد الانطلاق به إلى طفرة حضارية ما"

ينضح المكان بالقتامة والجهامة، تصوره الكاتبة، وكأنه متاهة، من يدخلها يضيع فى دهاليزها، وقد يغيب إلى الأبد.

"شوارع ميت رهينة ملتفة بعضها حول البعض، مثل حيات هائلة الحجم، أزقتها ضيقة ومتربة. أحيانًا يرى الغريب بيتًا، قرر صاحبه أن يبنيه هكذا حتى يقطع طريق المارة، ويجعلهم يدورون حول أنفسهم، قبل أن يصلوا إلى المكان، الذى يريدون الوصول إليه"

هذه الطبيعة الخانقة للمكان تنطبع على سلوكيات أصحاب المكان من رهاب وخوف، فهم يسيرون فرادى وجماعات، وهم لا يكفون عن الصراخ بعضهم فى وجوه البعض، يعرفون أنهم يدوسون على أرض داس عليها أجدادهم؛ الذين دانت لهم الأرض والأفلاك" يرتكن أصحاب المكان إلى التاريخى لإضفاء رهبة وقيمة، ويشعر أهل القرية بالخيلاء، وتصيبهم فجوة حضارية، فيتعجب الغريب من تصرفاتهم" إذا كان الغريب محظوظًا أكثر سيمر أمام بيت صمد منذ قرن من الزمان رغم أنه مبنى بالطوب اللبن والحطب وجزوع النخل، وتفوح منه رائحة خبز مدوخة للسائرين، يتوقف الغريب فجأة، ويزيح عن كتفه يدًا غير مرئية، تجعل جسده يرتعد، فيصرخ من دون سبب واضح مثله مثل أهل المكان"

هذا المكان المبجل من قبل التاريخ، والمهمل والمنسى حاليًا، يشبه قاطنوه فى تصرفاتهم، فهم يرفضون تبجيل العمدة واحترامه بالوقوف عند مروره أمامهم، ثم يعتذرون بشدة على تصرفهم هذا "يتعجب صلاح ممتعضًا ومعبرًا عن هذه الحالة، مزج أقصى درجة من درجات الازدراء، ثم أقصى درجة من درجات التبجيل".

يغرق المكان فى "لعنة ميت رهينة" فى الأسطورى الذى يعيد نتقًا من مشاهد متخيلة، يبتعثها السرد، وقعت على أرض ميت رهينة، وكأنها حقيقة يسلم بها أهل المكان، يتفاعلون معها، وينسجون حكاياتهم التى يرددونها على ألسنتهم.

"سيقسم لهم فى الصباح، بعد أن يسكبوا على وجهه سطل ماء من ترعة المريوطية، ويسألوه عن وجهته، أنه فقد وعيه بعد أن تحدث مع رجل غريب الهيئة، مهلهل الثياب، وأن الرجل ظل يسير معه طوال الليل، وهو يحدثه عن أنواع المخبوزات التى كان يخبزها للملك، وكان يمد إليه يده من آن إلى آخر، ويجعله يتذوق كعكًا غريبًا محشوًا بالرمان، وآخر محشوًا بالتمر".

هندسة المكان – هنا – مستقرة، على الرغم من أنها تتعرض لمحاولات تشويه وتحول، عبر هذا الوجود الإنسانى اللصيق به، لذا فالرواية تنبه إلى الوعى بكينونته داخل النص السردى، كينونة جعلت سهير المصادفة تلحظ الأشياء ومفردات المكان فى صيرورتها وتحولها، وتضخ فى تلك الأشياء دلالات جديدة، تصير جمرة من التوهج، تثير فضول المتلقى.

كل النساء فى ميت رهينة اعتورهم النقص، أو أصابهن الضياع والهم، أو فقدن الحياة، أو فقدن أبنائهن، أو وقعن فى مغامرات جنسية أورثتهن الألم، حتى الغريبات عنها مثل ريتاج السعودية الزوجة الأولى لأدهم الشواف لا تحقق لها ما تتمناه، وبناتها يتم تشويههن جسديًا بسبب الخضوع لعمليات التجميل المتكررة، أو تلك

الفتاة التى تتعرض للاغتصاب، وربما وقعن فى شرك الدجل والشعوذة والسحر الأسود. وثمة سارة الفتاة الجميلة، أخت مايكل سمير، التى تتعرض للاغتصاب همجى، من شباب القرية فى وضح النهار.

لا يمكن أن نغفل " نور" بما تمثله من دلالات أكثر من كونها إنسانة من لحم ودم. فالتشوهات الجسدية والنفسية التى لحقت بها ومن قبل لحقت بجدها " أدهم الشواف" تشي أن هذه الشخصيات غريبة، ودخيلة على " ميت رهينة".

إن كل من صلاح وخطيبته داليا نجا من هذا المصير، هما المستقبل والأمل المشرق الذى ينتظر القرية، تقول ليلى لميكل: إذا جاءت بنتا فسأسميها نور، وستكون جميلة وحنونًا ومتفائلة، وسأربيها لكى تشبه داليا".

داليا المشاركة فى ثورة يناير، رافعة علم مصر " لو نجحنا سنحميها ونبنيها وننظف شوارعها".

سيظل صلاح وداليا الرمز والأمل الذى تنتظره، ليس فقط ميت رهينة، بل الوطن كله.